فالعدول بالالتفات عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى - لا يكون كما رأينا - إلا لنوع من الخصوصية اقتضت ذلك. وهذه أمر لا يتوخاه في كلامه إلا المتمرس بفن القول والعارف بأسرار الفصاحة والبلاغة [١].

الجمع:

الجمع: هو أن يُجمَع بين متعدد في حكم واحد، أو هو أن يجمع المتكلم بين شيئين فأكثر في حكم واحد، كقوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦] فقد جمع الله سبحانه وتعالى «المال والبنون» في الزينة.

ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمٰن:٥-٦] [٢] فجمع بين الشمس والقمر في الحسبان أي الحساب الدقيق، وجمع بين النجم والشجر في السجود أي الانقياد لإرادة الله سبحانه.

ومنه قوله ﷺ: «من أصبح آمنا في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» [٣] فجمع الأمن ومعافاة البدن وقوت اليوم في حكم واحد هو حيازة الدنيا وامتلاكها بحذافيرها أي من جميع نواحيها.

ومنه شعرا قول أبي العتاهية:

إن الفراغ والشباب والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

فجمع الشاعر بين الفراغ والشباب والجدة أي الاستغناء في حكم واحد هو المفسدة، أي أن هذه الأمور تؤدي بصاحبها إلى الفساد.

التفريق:

التفريق في اللغة ضد الاجتماع.

والتفريق في اصطلاح البديعيين هو إيقاع تباين بين أمرين من نوع في المدح وغيره.

---

(١) انظر في هذا الموضوع كتاب المثل السائر لابن الأثير ص ١٦٧- ١٧٣.

(٢) **الحسبان بضم الحاء كالغفران**: الحساب الدقيق؛ والنجم هنا: النبات الذي ينجم أي يظهر من الأرض ولا ساق له؛ والشجرة: النبات الذي له ساق وله أغصان؛ ويسجدان أي ينقادان لما أراده سبحانه منهما.

(٣) **السرب بكسر السين وسكون الراء**: النفس وهو المراد هنا؛ ومن معانيها أيضًا: الجماعة من النساء والبقر والقطا والشاء والوحش؛ والجمع أسراب؛ والحذافير: النواحي؛ وأحدها حذفار.

وهذا معناه أن المتكلم أو الناظم يأتي إلى شيئين من نوع واحد، فيوقع بينهما تباينًا وتفريقًا بفرق يفيد زيادة وترجيحًا فيما هو بصدده من مدح أو ذم أو نسيب أو غيره من الأغراض الأدبية.

ومن أمثلة التفريق قول رشيد الدين الوطواط:

ما نوال الغمام وقت ربيع كنوال الأمير يوم سخاء
فنوال الأمير بدرة عين ونوال الغمام قطرة ماء

فالشاعر هنا قد أوقع التباين بين النوالين أي العطائين: نوال الغمام ونوال الأمير، مع أنهما من نوع واحد وهو مطلق نوال.

ومن أمثلة التفريق أيضًا قول الشاعر:

من قاس جدواك بالغمام فما أنصف في الحكم بين شكلين
أنت إذا جُذتَ ضاحك أبدا وهو إذا جاد دامع العين

فهنا شيئان من نوع واحد هما جدوى الممدوح وجدوى الغمام؛ أي عطاؤهما؛ وقد أوقع الشاعر تباينًا بينهما بفرق يفيد زيادة وترجيحًا لكفة عطاء الممدوح؛ فهو يعطي ضاحكًا فرحًا بالعطاء على حين يعطي الغمام دامع العين؛ كأنما هناك قوة تدفعه إلى العطاء على غير إرادة منه.

ومنه قول الشاعر:

قاسوك بالغصن في التثني قياس جهل بلا انتصاف
هذاك غصن الخلاف يدعى وأنت غصن بلا خلاف

فالشاعر أتى هنا بشيئين من نوع واحد على التشبيه هما: غصن شجر الخلاف أي الصفصاف، وقوام صاحبته الذي يشبه الغصن في التثني، ثم أوقع التباين والتفريق بينهما لفائدة معنوية ادعاها، وهي تفضيل قوام صاحبته على غصن الخلاف؛ لأن الأخير تنفر النفس عنه لاسمه «**الخلاف**» أما الأول وهو قوام صاحبته فغصن لا خلاف ولا شك فيه.

وفي «**خلاف**» و«**خلاف**» جناس تام لتشابه اللفظين نطقًا لا معنى، واتفاق حروفهما هيئة ونوعًا وعددًا وترتيبًا.

ومن التفريق أيضًا قول صفي الدين الحلي في مدح الرسول:

فجود كفيه لم تقلع سحائبه عن العباد وجود السحب لم يدم

ففي البيت شيئان من نوع واحد هما: جود كفي الرسول صلوات الله عليه وجود السحب، وقد أوقع الشاعر تباينًا بينهما مع أنهما من نوع واحد وهو مطلق الجود.

وقد قصد الشاعر من وراء هذا التباين أو التفريق بين الشيئين من نوع واحد إلى غرض بلاغي، هو ترجيح وتفضيل جود كفي الرسول على جود السحب، فجود كفي الرسول على العباد متصل دائم وجود السحب منقطع غير دائم.

الجمع مع التقسيم:

الجمع مع التقسيم: هو جمع متعدد تحت حكم ثم تقسيمه، أو العكس أي تقسيم متعدد ثم جمعه تحت حكم.

فالأول وهو جمع المتعدد ثم تقسيمه كقول المتنبي من قصيدة يصف فيها موقعة دارت بين الروم والعرب بقيادة سيف الدولة بالقرب من بحيرة الحدث:

حتى أقام على أرباض خرشنة ... تشقى به الروم والصلبان والبيع (١)

للسبى ما نكحوا والقتل ما ولدوا ... والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا

فالمتنبي هنا جمع الروم ممثلين في نسائهم وأولادهم وأموالهم وزرعهم تحت حكم واحد هو الشقاء، ثم قسم ذلك الحكم إلى سبي وقتل ونهب وإحراق، وأرجع إلى كل قسم من هذه الأقسام ما يلائمه ويناسبه، فأرجع للسبي ما نكحوا، وللقتل ما ولدوا، وللنهب ما جمعوا، وللنار ما زرعوا، أي إتلاف مزارعهم بالإحراق.

ومع أن الصلبان والبيع تشترك بالعطف مع الروم في الحكم عليها بالشقاء إلا أن التقسيم خُص بالروم وقصر عليهم وحدهم.

والثاني: هو التقسيم ثم الجمع، بعبارة أخرى هو تقديم التقسيم وتأخير الجمع في الحكم عليه، ومن أمثلته قول حسان بن ثابت:

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهمو ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

---

(١) **الأرباض**: جمع ربض بفتحتين؛ وهو ما حول المدينة؛ وخرشنة: بلد من بلاد الروم؛ وفيها يقول أبو فراس الحمداني:

إن زرت «خرشنة» أسيرًا ... فلكم أحطت بها مغيرا

ولقد رأيت النار تنـ ... ـهب المنازل والقصورا

ولئن لقيت الحزن فيـ ... ـك فقد لقيت بك السرورا

سجية تلك منهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرُّها البدع [١]

قسم الشاعر في البيت الأول صفة الممدوحين إلى ضر الأعداء في الحرب ونفع الأشياع والأولياء، ثم عاد فجمعها في البيت الثاني حيث قال: «**سجية تلك**».

والنوع الأول هنا كما يبدو أحسن وأوقع في القلوب من الثاني، وعليه مشى أصحاب البديعيات.

ومن النوع الأول أيضًا وهو الجمع ثم التقسيم قول صفي الدين الحلي:

أبادهم فلبيت المال ما جمعوا والروح للسيف والأجساد للرخم [٢]

فكما يفهم من البيت جمع الشاعر المتمردين على السلطان تحت حكم واحد هو الإبادة، ثم قسم ذلك الحكم إلى المال والروح والأجسام، وأرجع كل واحد من هذه الأقسام ما يناسبه، فأرجع لبيت المال ما جمعوا، وللسيف الروح، وللرخم الأجسام.

ويلاحظ على هذا البيت أن صفي الدين الحلي قد استوحى معناه من معنى بيت المتنبي السابق، ولكن شتان بين صياغة وصياغة، وبين شاعر مبدع وآخر مقلد.

الجمع مع التفريق:

يعرفه علماء البديع بأنه الجمع بين شيئين في حكم واحد ثم التفريق بينهما في ذلك الحكم.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]. فالمعنى أولاً أن الله سبحانه جعل الليل والنهار آيتين، أي دليلين على قدرته وحكمته، والمراد بمحو آية خلقها محوًا لضوئها، أي جعلها مظلمة كما جعل آية النهار مبصرة.

على هذا جمع بين الليل والنهار في حكم واحد هو أنهما آيتان ودليلان على القدرة والحكمة، ثم فرق بينهما في ذلك الحكم من جهة أن الليل يكون مظلمًا والنهار يكون مضيئًا.

ومن أمثلة الجمع مع التفريق شعرًا قول رشيد الدين الوطواط:

---

(١) البدع: جمع بدعة: وهي الحدث في الدين بعد الكمال، والمراد بها هنا محدثات الأخلاق.
(٢) الرخم: الطيور؛ جمع رخمة بفتحتين.

فوجهك كالنار في ضوئها وقلبي كالنار في حرّها

فقد جمع بين وجه الحبيب وقلب نفسه في حكم واحد هو تشبيههما بالنار، ثم فرّق بينهما في ذلك الحكم من جهة وجه الشبه في كليهما، فوجه الحبيبة كالنار في ضوئها ولمعانها، وقلب الشاعر كالنار في حرارتها ولهبها المحرق.

ومن الشواهد أيضًا قول الفخر عيسى:

تشابه دمعانا غداة فراقنا مشابهة في قصة دون قصة

فوجنتها تكسو المدامع حمرة ودمعي يكسو حمرة اللون وجنتي

فالشاعر هنا جمع بين الدمعين ساعة الفراق في الشبه، ثم فرّق بينهما بأن دمع الحبيبة أبيض فإذا جرى على خدها صار أحمر بسبب احمرار خدّها، وأنّ دمعه أحمر لأنه يبكي دمًا، وجسده من النحول والشحوب أصفر فإذا جرى دمعه على خده صيَّره أحمر.

ومن أمثلة الجمع مع التفريق كذلك قول البحتري:

ولما التقينا والنقا موعد لنا تعجّب رائي الدر منا ولاقطه

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

فالبحتري في بيتيه هذين جمع بين رائي الدر ولاقطه في حكم واحد هو التعجب، ثم فرّق بينهما في ذلك الحكم، أي جهة التعجب، فرائي الدر يتعجب من ثناياها اللؤلؤية التي تبدو له عند ابتسامها، ولاقط الدر يتعجب مما تنفرج عنه شفتاها عند الحديث من كلمات يلتقطها وكأنها اللؤلؤ قيمة ونفاسة.

الجمع مع التفريق والتقسيم:

وهو الجمع بين شيئين أو أشياء في حكم واحد، ثم التفريق بينها في ذلك الحكم، ثم التقسيم بين الشيئين أو الأشياء المفرقة بأن يضاف إلى كل ما يلائمه ويناسبه.

ومن امثلة ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٥-١٠٨].

اما الجمع ففي قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود:١٠٥] فإن قوله: ﴿نَفْسٌ﴾

متعدد معنى، أي جمع الأنفس بقوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾، ثم فرق بينهم بأن بعضهم شقي وبعضهم سعيد، ثم قسم بأن أضاف إلى الأشقياء ما لهم من عذاب النار، وإلى السعداء ما لهم من نعيم الجنة.

ومن الجمع مع التفريق والتقسيم شعرًا قول ابن شرف القيرواني:

لمختلفي الحاجات جمع ببابه فهذا له فن وهذا له فن
فللخامل العليا وللمعدم الغني وللمذنب العتبى وللخائف الأمن (١)

فمختلفو الحاجات جمع بينهم في حكم واحد هو الاجتماع أمام بابه، ثم فرّق بينهم في ذلك الحكم من جهة أن كلًّا منهم له خاصية تخالف حال غيره ثم عاد فقسَّم بأن أضاف إلى كل واحد منهم ما يناسب حاله فللخامل العليا وللمعدم الغنى، وللمذنب العتبى، وللخائف الأمن.

* * *

(١) **الفنّ هنا**: الحال، والخامل: ساقط النباهة الذي لا حظ له، مأخوذ من خمل المنزل خمولاً إذا عفا ودرس، وللمذنب العتبى: أى الرضا عنه والتجاوز عن ذنبه.

obeikandl.com